ضرورة الحوار الحضاري من أجل إنقاذ الإنسانية والإنسان

أ.د. وهبة مصطفى الزحيلي

جامعة دمشق- كلية الشريعة

تقديم

الحمد لله الذي خلق الإنسان، علمه البيان، والصلاة والسلام على نبي الرحمة المهداة، وعلى آله وصحبه أعلام الهدى ومشاعل الحق، ومن تبعهم بإحسان، وبعد:

فإن العالم المعاصر يعيش الآن في حالة غليان وتوتر شديد بسبب اشتعال الحروب الساخنة والباردة، وأزمة الغلاء العالمي، بفعل تسلط بعض الأنظمة العنصرية والاستكبارية الطامعة في إخضاع الشعوب المستضعفة لهيمنتها ونفوذها، وأداتهما صندوق النقد الدولي، مع غياب العقل الواعي، ونداءات المباديء الأخلاقية والقيم السامية العليا، مما أدى إلى طحن مصالح الإنسان، وهزّ الوجود الإنساني، والإخاء البشري، والتعاون الحقيقي.

وأولياء الدين الحق والإيمان يجدون ضرورة حيوية لإحياء معالم الحوار الحضاري بين الثقافات والشعوب والحضارات والفلسفات، لأن للدين ونحوه تأثيره الفعال في علاج النزعات الدنيوية، وكبح جماح الأهواء والنزوات العدوانية، فكان من الحكمة ترك اليأس، وعقد الندوات والمؤتمرات المستمرة عن الحوار.

وأجد لزاماً عليّ أن أحدِّد الغاية الأساسية من الحوار ألا وهو إنقاذ البشرية أو الإنسانية، والإنسان ذاته من هذا الظلم والطغيان القائم، والتخلص من آفات السقوط أو الانهيار الحضاري، وما يتبعه من مخاطر كبيرة ومشكلات

كثيرة، وذلك خلال خطة البحث الآتية:

المحور الأول: تكامل الحضارات.

المحور الثاني: تعدد الأديان والمذاهب والثقافات.

المحور الثالث: الحوار من أجل بقاء الإنسان.

المحور الرابع: الحوار من أجل تخفيف ألوان المعاناة الإنسانية.

المحور الخامس: مقومات الحوار الحضاري في ميزان الإنسان.

المحور الأول- تكامل الحضارات:

الحضارة في المفهوم غير الديني ذات بُعْد مادي يعنى المدنية، وساد هذا التصور في تاريخ الحضارات القديمة والحديثة، وهي ذات دورات تقفز إلى السطح والعلو تارة، وتهبط إلى الحضيض تارة أخرى بحسب قوة نظام الدولة وضعفها، وذلك يشمل الحضارة الصينية والكونفوشوسية، والحضارة اليابانية في أقصى الشرق في آسيا، والحضارة الهندوكية في الهند، والحضارة الأرثوذكسية السلافية في روسيا وأوروبا الشرقية الجنوبية، والحضارة الإفريقية السائدة في جنوب الصحراء في القارة الإفريقية. ومنها الحضارة الرومانية والإغريقية (اليونانية) وجاءت الحضارة الغربية الحديثة وارثة للحضارة الرومانية المادية على القوة والتفوق العسكري، وشهدت قفزة عالية متميزة بالابتكارات والاختراعات الجديدة والنهضة الصناعية المتطورة في القرون الثلاثة الأخيرة.

وقد أدت الحضارة الإسلامية بفروعها في آسيا وإفريقيا دوراً مشرفاً في العلوم النظرية والتجريبية، واقتبست الحضارة الغربية منها كثيراً من الفنون والآداب والتجارب، ومنها علوم الطب والفلك والفلسفة والكيمياء والعلوم الرياضية والقوانين والأنظمة الإدارية والتعاقدية والاقتصادية ونحوها. ومن المعروف أن المسلمين هم الذين ابتكروا المنهج التجريبي قبل ((بيكون)). وامتازت الحضارة الإسلامية بأنها قائمة على بُعْدين: بُعد روحي وأخلاقي، وبُعد مادي، فأصبح للحضارة أفق شامل، وهو مجموع المفاهيم عن الحياة الدنيا وعما قبلها وعما بعدها، وهي خاصة في كل أمة من الأمم، على عكس

المدنية التي هي عامة، ولا تختص بها أمة من الأمم، وليس لها علاقة بالعقائد، فوجدت ثماني دوائر حضارية، ولكل منها خصائص ومنها الحضارة الغربية بفروعها الثلاثة: الأوربية، والأمريكية الشمالية، والأمريكية الجنوبية.

والواقع أن الحضارات متكاملة، يأخذ بعضها من بعض، ويكمل بعضها البعض الآخر، لأنها تعتمد في الدرجة الأولى على العلم، والعلم حق مشاع بين الأمم، فلا يعرف عصبية ولا عنصرية.

وهذا يثبت حق الأمم في توارث الحضارات، فكل أمة تقتبس من غيرها لوناً حضارياً، بين تعديل أو نقص أو إضافة، وتلك سنة طبيعية، فلا يصح أن توصف الحضارة بانتماء معين: ديني، أو مذهبي، أو قومي، أو طائفي، وحينئذ يجب استبعاد الصفة العنصرية أو العرقية، وأن تكون الحضارة ذات صبغة إنسانية وشاملة ومتوازنة، وهي الحضارة الإسلامية.

أما محاولة تصدير أمريكا والغرب معها نظرية العولمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإعلامية، فهو إلى حد ما مقبول، في الجانب الإيجابي للعولمة، أما الجوانب السلبية الكثيرة، فهي مثل ترويج الثقافة الغربية وحدها، والتقاليد الغربية، والتصورات الغربية، وتحقيق مصالح الأنظمة الاحتكارية والرأسمالية الكبرى، مما هو مقصور على الجوانب المادية فقط، ومحاولة إذابة الثقافة المحلية والصناعة المحلية، والقيم المحلية، والأفكار الدينية والاجتماعية اللصيقة بالدين، ونحو ذلك، فهذه السلبيات مرفوضة، رفضها أكثر من ثلاثة أرباع العالم.

المحور الثاني- تعدد الأديان والمذاهب والثقافات:

الأديان وما يتفرع عنها من مذاهب وآراء وفلسفات واقع لا يمكن إنكاره، منها الحق وأغلبها في وضعها الحالي باطل بسبب الانحراف عن هدي الوحي الإلهي الذي تضمن نظاماً رفيعاً وسديداً للإنسان ومجتمعه، وتعدد الأديان سنة إلهية عامة، قال الله تعالى في قرآنه واصفاً هذه الظاهرة: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (سورة يونس:٩٩).

وكذلك الثقافات متنوعة، وتعددها أكثر من تعدد الأديان، لأنها نابعة من إفرازات كل مجتمع بحسب ظروفه، ومن المعلوم أن الثقافة – كما جاء في معجم العلوم الاجتماعية وقاموس علم الاجتماع –: هي استجابة الإنسان لإشباع حاجاته المادية والروحية. أو إنها ((تشمل نماذج الحياة الاجتماعية بأُسَرها العائلية والاقتصادية والدينية والأخلاقية والتربوية والجمالية والسياسية واللغوية والعلمية)) فالثقافة تشمل المعرفة والسلوك.

ومن الأسف أن الثقافة الشائعة كالحضارة القائمة مادية بحتة، فهي ترفض الدين، وتردد مقولة: الفن للفن، والعلم للعلم، والعقل فقط، ولا شيء آخر،وهذا مرفوض منطقياً وواقعياً، فلا بد للثقافة والعلم من الروحانيات لتنهض الإنسانية وتتقدم بخطى ثابتة وراسخة ودائمة، ولا بد أن يكون الفن أخلاقياً، لتحقيق السمو وتجنب المخاطر والدنايا والثغرات بل والأمراض الاجتماعية، والدين الحق أصل الأخلاق، ويجب احترام القيم الدينية في مجال الفن، وغيره، وفي تقييم معطيات الأفكار والعلوم ورصد الغايات

وتحديد الأهداف، حتى لا يقع التعثر في نهاية المطاف، ويقع الشلل، لذا فإن الحضارة المادية، والثقافية الضعيفة غير المحاطة بسياج القيم العليا، سرعان ما تنهار، وحينئذ يبحث المثقفون والمفكرون عن البديل السليم، مع أن منظومة الدين في وسائله وغاياته تضع أمام الإنسان تصوراً سليماً منذ البداية، وتطالبه بوضع خطة منهجية محكمة، أو استراتيجية مدروسة سلفاً هي من وضع أحكم الحاكمين، منعاً من كثرة التقلبات، والتجارب وتوفيراً للجهد والوقت.

وأما هذا التنوع والتعدد في الثقافات والأديان والمذاهب، فكان لا بد من الحوار، لمصلحة الإنسان والناس جميعاً، لأن الله تعالى خلق البشرية شعوباً وقبائل (لتعارفوا) لا ليتناكروا ويتصادموا، وليعمهم الخير وثمراته الطيبة، ويتقوا الشر وآثاره الضارة، لذا كان أول ميثاق في العالم في مجتمع المدينة المنورة بعد الهجرة إليها وإبان بدء تكوين الدولة الإسلامية، هو ما نصت عليه (الوثيقة أو الصحيفة) من جعل أتباع الإسلام والنصرانية واليهودية يعيشون على أساس متين في التعامل ، لتوفير الثقة والأمن والاستقرار، ووضع مظلة وارفة من التعايش السلمي والودي والتعاون المثمر، والحوار البنَّاء، وما زال هذا المنهج مستمراً أو مطبقاً في الواقع الإسلامي ومتواصلاً بين أتباع الديانات في دائرة الحضارة الإسلامية – العربية، ينشط أحياناً، ويفتر أحياناً، والغالب هو تحقيق السلامة الأمنية والاجتماعية ما دام أطراف الحوار يلتزمون ببنود الميثاق ويحترمون معطياته. ومنطلقات هذا الحوار الصريح من غير تصادم إذا حسنت النوايا : هو الآية الكريمة الناطقة بوضوح: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ

في مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَات إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (سورة المائدة:٤٨).

وهذا دليل واضح على أن التعدد والتنوع في العقول والأفكار والأديان والشرائع والمذاهب والثقافات سنة واضحة من سنن الله تعالى في الكون، ليكون التسابق في الخيرات أو التسارع فيه الخيرات معبراً عن التنافس الشريف، ولإثبات الذات الإنسانية والظفر بفضيلة جهاد النفس والتغلب على العقبات، في ضوء التوجيه الإلهي والهدي القرآني المعبر عن ختام الأديان والرسل إلى يوم القيامة.

المحور الثالث - من أجل بقاء الإنسان:

إن الحوار الحضاري العام الإسلامي أمر حتمي مع الآخر: وهو كل من كان غير مسلم، سواء أكان يهودياً أم نصرانياً أم وثنياً أم بوذياً أم علمانياً أم مادياً ملحداً أم علمانياً لا يؤمن بدين، أم فكرياً مع العلماء والفلاسفة والحكماء والمفكرين، أم اقتصادياً (رأسمالياً أم اشتراكياَ) أم سياسياً جمهورياً أم ملكياً أم غيرهما، وذلك من أجل إنقاذ البشرية كلها من التشتت والضياع والفناء، ومن أجل الإنسان ذاته ليبقى معبراً عن أكرم مخلوقات الله، ووجوده، وكرامته، وحريته المسلوبتين في منطق السياسة (التلمودية – العنصرية – المستكبرة) ومن أجل صون أمانه، وتوفير غذائه (الأمن الغذائي) ورعاية صحته (الأمن الصحي) وتحقيق طموحه في السعادة، وتمكينه من ممارسة نشاطه وبذل جهده فيما ينفعه وينفع أطفاله وأسرته وأهله، فكلها أهداف عزيزة وكريمة، لأن أكثر من ثلث سكان العالم يعيشون تحت خط الفقر (أقل من دولار في اليوم) فمن أجل مَنْ تثار الحروب، وتحتل البلاد، وتقتحم حرمة الأوطان، وترتكب أخس وأحط الجرائم الأخلاقية، ويزجّ بالشباب في قيعان السجون، ليعاملوا معاملة أشنع وأحقر وأقسى من معاملة الحيوان مثل (سجن أبي غريب في العراق وأبي زعبل في مصر، وسجون مراكز الأمن تحت الأرض في بلاد كثيرة ومعتقل غوانتا ناموا) وغيرها من قيعان التعذيب والوحشية الداخلية والخارجية.

إن من حق الإنسان أي إنسان أن يعيش حراً عزيزاً كريماً، ومن الحق الواجب على كل إنسان أن لا يكون أداة تخريب وتدمير وإرهاب، وخيانة

لأمته ووطنه بالتجسس والتآمر وكيد المكائد. وإن من حق الإنسان الوطني أن يدافع عن وطنه بعزة وإباء واستشهاد وشرف، وتضحية ووفاء، وأن يجنِّد كل طاقاته لطرد المحتل اللعين والغاصب الذميم.

وإن من الحق على الإنسان أن يعاقب وحده عقاباً فردياً، ولا يعاقب آخرون أو يعاقب الشعب كله ومواطنو الدولة عقاباً جماعياً باحتلال الأرض ونهب الثروات والخضوع لأطماع الكيان الصهيوني العنصري المستبد الذي تحميه قوى الشر والعدوان من أنظمة الغرب (أمريكا وأوربا) والشرق الحاقد على الإسلام والمسلمين، مع أنه صار الآن في طور الشيخوخة.

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (سورة المدَّثر:٣٨) وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (سورة الإسراء: ١٥).

المحور الرابع - الحوار من أجل تخفيف ألوان المعاناة الإنسانية:

إن الحوار الهادىء والمنطقي والمعقول أشد ما نكون بحاجة إليه لتخفيف آلام الإنسانية المعذّبة، سواء في بلادنا أم في غيرها، للتخلص من ويلات الحروب والكوارث، وفظائع الجرائم ضد الإنسانية، مع ظهور موجات الغلاء والجوع العالمي، وتتحكم ألوان الجنون والطيش في رؤوس القادة، والتأثر بالأهواء والشهوات، ونزعات الاستكبار والاستبداد والطغيان والظلم ومزاولة أخسّ وأحط ألوان العدوان، فإذا ما تحرك الضمير العالمي لإنصاف المظلومين وتخفيف بشاعة المعاناة الإنسانية عن المنكوبين ولو بالقول والمجاملة، ترى أمريكا المستكبرة وحلفاءها يتدخلون لتسويغ جرائمهم،

وإعفاء الكيان الصهيوني من أي مساءلة، بحجة الهواجس الأمنية والدفاع عن المواطنين والمحتلين الغاصبين الذين يمارسون الإرهاب الأكبر، ومع بناء المستوطنات في الأرض العربية، ومصادرة الأراضي ظلماً وبغياً، وبناء جدران الفصل العنصري لتقسيم القرى والمدن إلى كانتونات (تقسيمات هزيلة)، وقتل عشرات ومئات الآمنين العرب في كل مكان.

والصهاينة في الواقع لا يريدون سلماً، ولا إقراراً بحق، ولا تهدئة مع الشعب الفلسطين، وكذلك الأمريكان وحلفاؤهم في أفغانستان والعراق والصومال لا يريدون سلماً ولا أماناً، وإنما يريدون ممارسة أسوأ أشكال التسلط والنفوذ والطغيان على الشعب الضعيف، والتحكم في ثرواته النفطية والمعدنية، بل تحطيم قوى الدفاع الإسلامي والعربي، وسرعان ما تظهر وتفتضح أكاذيبهم شيئاً فشيئاً مع الزمان، كانكشاف أكذوبة القضاء على أسلحة الدمار الشامل في العراق منذ أربع سنوات؟!

إن العرب والمسلمين يعيشون في كنف أخطار متوالية، فهل يفيد الحوار الذي لا يتسم بالجدية والمصداقية شيئاً، بل عدم الاحترام الفعلي للمستضعفين على أساس من الحق والعدل والمساواة، والذي يترفع قادة الحوار في أثناء ممارسته عن سياسة الإملاءات وفرض الشروط، كما هو شأن الغرب عادة، وكما حصل بعد الحرب العالمية الأولى والثانية من فرض الشروط على المنهزم، وهي شروط الحلفاء على ألمانيا النازية، فإن لم تتحقق ضوابط الحوار على النحو المذكور كان أشبه بحوار الطرشان.

المحور الخامس- مقومات الحوار الحضاري في ميزان الإسلام:

الذي تروِّج له أمريكا وسائر الغرب اليوم هو الصراع الحضاري على لسان الرئيس الأمريكي السابق كلنتون وغيره، وإبقاء نظرية التفاوت الإنساني والعنصري، والتميز الطبقي مع المسلمين وغيرهم في دنيا الواقع، وهذا في الحقيقة منشأ إشعال نار الحروب والتدخل في بلادنا في كل صغيرة وكبيرة، وهو ما تركز عليه المشاورات والمؤتمرات السرية بين الصهاينة والحاقدين التلموديين واليمين الأمريكي والأوروبي المتطرف والمتصهين، فهم دائماً في تاريخنا المعاصر نذير شؤم وتآمر، وتورط في قصف ونسف وهدم وتشريد وطرد وتيتيم أطفال، وأسْر شبان، وجعل منطقتنا في غَليان دائم ونزيف دماء مستمر، وتقتيل، ومصادرةَ أموال وأراض.. الخ.

ولا يُذعن هؤلاء جميعاً لنداءات الحق والعدل والمساواة واحترام حقوق الإنسان وَعزة الأوطان وترك تدنيس شرف المقدسات التي تجردوا من الإيمان بها أو مراعاتها.

بل إنهم في الواقع لا يريدون حواراً، بل حرباً، ولا سلماً بل فتكاً وضرباً، ولا حرية بل عبودية واستعباداً، ولا أمناً بل زرع الرعب والخوف ونشر الفقر والجوع، وإبقاء التخلف والجهل في ساحات بلاد الإسلام والعروبة.

ونحن من جانبنا ما زلنا نؤمن بالمبادئ والقيم الإنسانية والأخلاقية، والإذعان لدواعي الفضيلة والتحضر، ومعطيات العلم النافع والتمدن الرفيع، واللجوء إلى الحوار البنَّاء القائم على منهج العدل والأمن والسلام، لتعيش البشرية في إخاء وأمن واطمئنان، ولعل ما يفيد عقلاءهم وأصحاب

الضمائر الحية واليقظة الإذعان لمنطق الحق واللجوء إلى مظلة الحوار في تقدير الإسلام وكل دين يحترمه أتباعه، في ضوء المبادئ والقيم الآتية:

١- التزام ركيزة الإيمان الحق:

للإيمان الصحيح إشعاع ونور لا يخبو، فهو يوجِّه الإنسان إلى التزام معالم الحق والعدل والإحسان والفضيلة وإحياء الوجدان والإيمان ببعده السماوي الخالد يحفظ للإنسان الأمل الدائم في حياة طيبة هانئة، ويبعد عنه الهواجس والقلاقل والاضطرابات، وينسِّق بينه وبين بني الإنسان ومع موجودات الكون على أساس التأمل في عظمة الجلال الإلهي وروعة الجمال، ثم صون الإنسان عن العبث، وحفظ أي إنسان، لا إنسان الغرب والصهيونية فقط، بل كل مخلوقات الله تعالى عن التعرض للذل والهوان، لا سيما احترام وجود أصحاب الحق الخالد، وأهل الوطن الراسخ في بلادهم، وتمكينهم من العيش بسلام ووئام.

يجب أن لا يقتصر نداء الإيمان السماوي على مجرد رعاية المصالح الذاتية، والأطماع السياسية والاقتصادية، وإبقاء مناطق النفوذ والاستعلاء في بقاع العالم كله لحساب طرف واحد، أو قطب مستبد واحد، لأن المصلحة الدائمة هي المصلحة المشتركة، والمصلحة الخالدة هي التي تحقق العدل والمساواة والإخاء وتعميم الخير.

إن الحرية والحق في العيش المشترك بأمان وسلام واستقرار، هما جوهر الحياة الصحيحة، وأساس النمو وتنمية طاقات الإنسان وإبراز مواهبه.

ـ إن غياب الحرية يوقع الإنسانية في جحيم لا يطاق، وفي ارتكاب مظالم ومجازر لا حصر لها.

ـ وإن من أسوأ هَجْر مبدأ الحوار والإصرار على بقاء فكر الصراع الحضاري: الوقوع في آفات خطيرة، وانتشار ظاهرة الاستبداد والاستعمار ونشر الإرهاب الفكري، وادعاء الوصاية على الآخرين، واتهامهم بالغباء والجهل وعدم الفهم، وهذه كلها داء العصر الاستعماري الجديد، لفرض الهيمنة على الأفراد والقادة والشعوب، وممارسة أشكال الضغط الاقتصادي والثقافي والفكري تحت ستار العولمة، وزعم العمل من أجل تصدير الديمقراطية ونشرها في العالم، لكن كيف يلتقي الاستبداد والتحكم في مصائر الآخرين مع إيجابيات العولمة ومصداقية الديمقراطية ؟!

الإيمان في البعد السماوي الصحيح كفيل بحل مشكلات الاضطراب العالمي، ورفع الأيدي الظالمة عن كل ألوان المعاناة، وتحرير الإنسان، وصون شرف الأوطان.

ويتطلب الإيمان، نبذ الإلحاد والعلمنة، ومقاومة سياسة الاستعلاء والاستكبار، ومحاربة الأطماع البشرية الجامحة، وإقرار الثقافات المحلية والبعد عن محاولة إلغائها، والتعارف في مجال الدوائر الحضارية المختلفة، لاسيما علاج الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، وتفهم هذه الأوضاع، وتكثيف الحوار السياسي والأمني والعقدي، واحترام القيم الإنسانية العليا والمباديء الأخلاقية.

٢- الحفاظ على مبدأ الإخاء الإنساني:

الناس في هذا العالم كلهم سواء، وهم إخوة من أصل واحد، وعليهم أن يلتقوا على صعيد واحد، وآمالهم وآلامهم واحدة، وحقهم في عيش كريم عام حق ثابت خالد، ولا استقرار ولا هدوء في كل بقاع العالم إلا باللجوء إلى الحوار، والتكافل والتعاون على قدم المساواة، وهذا إن كان لا يروق للمتسلطين والمستكبرين، فهو في النهاية مؤدٍّ إلى تحطيمهم وخيبتهم وهزيمتهم عما قريب، وليس للظلمة في نهاية الأمر إلا التراجع والخسران والانحسار وتحجيم الوجود.

إننا نريد أن نذكِّرهم- وهم أصحاب القوة العسكرية الضاربة والتسلط وممارسة الظلم- بشيء من وصايا السماء إن كانوا مؤمنين حقاً بشيء من القيم، ليسود الأمن والاستقرار في عالمنا الواحد ويتقهقر جند الظلم والتسلط على المستضعفين، قال الله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (سورة النساء:١) وهذا تقرير واضح لمبدأ المساواة في الإنسانية.

والمساواة تقتضي العمل الجماعي الشامل، والتعاون المثمر، والحوار الهادئ، والإذعان لما يقتضيه مبدأ الإخاء الإنساني العام، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ...﴾ (سورة الحجرات: ١٣).

٣- الحب الحقيقي للإنسان :

لا تصفو العلاقات الدولية والإنسانية، ولا تزول أسباب التوتر والغليان في عالمنا إلا بشعور فياض من الحب الصادق لكل إنسان في هذا الوجود،

ومن أحب غيره عامله معاملة نفسه، وكان شعاره معه الإنصاف والعدل والحرص على تحقيق مصالح غيره كما يحب ويرعى مصالحه.

أما أن تبقى النزعة الفوقية مسيطرة على نفوس بعض القادة المتحكمين الآن في مصير العالم المعاصر، ويمارسون تصرفات عدوانية على الضعفاء، فلا أمل حينئذ في الاستقرار والوئام وإشاعة السعادة لكل إنسان.

وهذا يتطلب بحسب أنظمتهم المعلنة تفعيل التوجه إلى احترام حقوق الإنسان في كل مكان، لا أن يظل ذلك مجرد شعارات جوفاء، منذ إعلان الميثاق العالمي لحقوق الإنسان في منظمة الأمم المتحدة في العاشر من كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٤٨ .

ولا جدوى لأي حوار ما لم تتحقق الرغبة في إنجاحه، والانبعاث من عاطفة الحب الأخوي الإنساني، في ظل المبدأ الإسلامي السماوي الرفيع ألا وهو: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))(١).

٤ - الاعتراف بالآخر:

الآخر في المصطلح العام: كل ما عدا الإنسان المحاور، سواء أكان منتمياً لأي نظام أم دولة أخرى، أم يؤمن بدين آخر، أم من أتباع حضارة أخرى من الحضارات في عالمنا، أم من عرق آخر، أم له فكر مختلف، أم تبعية لأي اتجاه عقدي أم علمي، أم فلسفي أم انتهاج طريقة معينة في الحياة.

وهذا شرط أساسي لأي حوار، أما إن لم يتحقق الاعتراف بالآخرين أو أحس المحاور بنزعة فوقية أو حضارية، فإن الحوار يكون عديم الجدوى.

---

(١) أخرجه الجماعة (أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه) إلا أبا داود.

وهذه مشكلة العصر حيث لا يرى القوي إلا نفسه ودولته ووجوده، ولا يقيم في الواقع العلمي أي اعتبار للآخرين الذين هم في نظر الأقوياء مجرد ميكروبات أو فيروسات، أو لا يستحقون الحياة، وإنما الحياة للأقوى، وهو ما كان سائداً في الأمم القديمة والجاهلية العربية الذين يرددون: ((وإنما العزة للكاثر)). أي الأكثر أتباعاً، والأقوى اقتصاداً، والأعز منعة وعسكرة وتفوقاً في أي شيء، وهذا عين الفساد والتخلف، وبصراحة أقول: لا أمل في الحوار ما لم يعترف بنا أعداؤنا في الغرب أو في الشرق.

٥ - التقيد بمنهج الحق والعدل والمساواة:

كل حوار لا يتقيد بشرعة الحق والعدل ومبدأ المساواة فهو فاشل أو خائب، لأن منشأ النزاع والقلق هو الباطل والظلم وعدم التعادل، ولا ينجح الحوار إلا بالانطلاق من مسلَّمات ضرورية يحتكم إليها، ليزول الخصام والاضطراب والتوتر وتسوى المنازعات، لأن ملتقى الجميع دون أي إشكال معرفة مبدأ الحق أولاً، فالحق أحق أن يتبع، ولا يتسنى لأحد الاعتراض على النتائج إذا سوِّيت المنازعات على أساس من مراعاة حقوق الطرفين المتخاصمين أو المختلفين، فبالحق دوام الوفاق، وبالباطل يبقى الخلاف، وسرعان ما ينهار أي اتفاق إذا بني على الظلم، قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (سورة الإسراء: ٨١).

والعدل غير الحق كما هو معروف، لأن العدل ضد الظلم، والحق ضد الباطل، وبالعدل قامت السموات والأرض، والعدل أساس لمنح المتحاورين حقوقهما، والوقوف عند مقتضى العدالة بينهما، أما الظلم فمؤذن بالخراب، ولا بد من كون المحاور كالقاضي الذي لا يتحيز ولا يميل لأي طرف على حساب الآخر، قال الله

عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ..﴾ الآية (سورة النحل: ٩٠).

والمساواة في مراكز الأطراف المتحاورة مرجع الفصل في النزاع، فإذا مالت كفة أحد المتحاورين على حساب الآخر، فلا يتوافر الرضا بشيء، ولا تنطفئ نار المشكلة، والمساواة كالحق والعدل مرجع كل العقلاء والمتعاملين، فلا ينقص شيء تم فيه التساوي، ولا يفسخ عقد تعادل أو تساوي فيه كلا الطرفين في الحقوق والواجبات.

ومن أشهر الأمثلة على مبدأ المساواة: الحوار في أصل الاعتقاد وإعلان مساواة الطرفين في الإقرار بوجود إله واحد، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

٦- عناصر حضارتنا:

الحضارة الإسلامية حضارة متميزة شاملة للحياتين الدنيوية والأخروية، المادية والروحية، لتظل الحضارة خالدة قائمة غير متعثرة، ولا مهددة بالانهيار، كما هو حال الحضارة الغربية المادية البحتة، بسبب اقتصارها على الأبعاد المادية وتخليها عن الأبعاد الروحية، قال الله تعالى مبيناً عناصر حضارتنا الأربعة: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (سورة القصص: ٧٧).

ومثلها سورة العصر: ﴿وَالْعَصْرِ. إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (سورة العصر: ١ - ٣).

دلت الآيات على عناصر الحضارة الإسلامية الأربعة: العمل للآخرة فهو

بمثابة المقوِّم لأعمال الإنسان، والعمل للدنيا وسيلة للآخرة، وإحسان العمل، واجتناب الفساد، فليس في حضارتنا مثلاً إلا تحقيق الخير والصلاح والإحسان في الابتكارات والأعمال، والبعد عن الفساد الذي هو مثل ابتكار آلات الدمار الشامل من قنابل هيدروجينية وذرية وكيمياوية خطيرة.

٧- صون الأمن والسلم الدوليين والمحليين:

إن من أخطر ما تعاني منه البشرية اختلال الأمن والتورط في حروب ظالمة على المستوى الداخلي والخارجي، لأن كل ما يهدِّد الأمن والسلام العالمي يُلحق ضرراً واضحاً بالبشرية والأوطان، فكم عانت البشرية من الحربين العالميتين الأولى والثانية، حيث قُتل أكثر من ستين مليون نسمة، وكم سقط من مئات الألوف بسبب إراقة الدماء في أوروبا، وارتكاب مجازر محاكم التفتيش فيها، انطلاقاً من تعصب ديني مذهبي في فترة القرون الوسطى.

وكم قدَّمت البلاد العربية- الإسلامية من دماء الشهداء لمقاومة الاستعمار، كالجزائر ذات المليون شهيد فأكثر، وغيرها من أجل تصفية الاستعمار البغيض.

وكم تُزْهَق أرواح بريئة طاهرة اليوم في ربع القرن الأخير كالحرب العراقية الإيرانية التي نجم عنها قتل مليون شهيد في إيران، ومثل ذلك الآن من قتل أطفال ونساء وشيوخ في العراق على يد الحلفاء بقيادة أمريكا، وكذلك الشأن في فلسطين وأفغانستان والصومال، وقبل ذلك على يد سفاحي الشيوعية في الاتحاد السوفياتي ويوغوسلافيا، وتجدَّد ذلك في حروب التحرير في كوسوفو والبوسنة والهرسك وغيرها.

إن دعوة القرآن الكريم إلى إقرار السلم والأمن الدوليين واضحة في آيات

قرآنية، منها قول سبحانه: ﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (البقرة: ٢٠٨).

وقولَه تعالى: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (سورة الأنعام: ٨١ - ٨٢) كل إخلال بالأمن ظلم واضح واعتداء فاضح.

٨- ضرورة الحفاظ على اللغة العربية:

تحاول بعض الدوائر الغربية، وفي قمتها أمريكا من أجل ترسيخ نظام العولمة إضعاف اللغة العربية، وقصرها على أهل الاختصاص، وإشاعة اللهجة العامية، وإحلال اللغة الانجليزية محلها في سلَّم درجات التعليم كله، وفي ممارسة التجارة، والاستيراد والتصدير، وكذا في الكلام العادي، وفي المخاطبات الرسمية، إلا من عصم الله مثل دولة سورية التي جعلت الحفاظ على اللغة العربية في مؤتمر القمة العربي العشرين الأخير في دمشق أحد بنود المؤتمر وتوصياته الأساسية. وذلك لأن اللغة العربية وعاء القرآن والإسلام، وزاد الثقافة العربية، والحفاظ على هوية الأمة العربية، كما أن من سلبيات العولمة محاولة إذابة اللغات المحلية المختلفة، ولو غير عربية، علماً بأنه قد ضاق الغرب باللغة العربية التي سجلت أعلى ارتفاع لها في نسبة الناطقين باللغات الرئيسية على مستوى العالم، فقفزت من (٧, ٢٪) إلى (٥, ٣٪) عام ١٩٩٢[١].

وهذا يقتضي من الدول العربية والإسلامية زيادة العناية بتدريس اللغة العربية، لتوفير مستقبل زاهر لها، فإن اللسان العربي هو أساس صحة صلاة

---

(١) مجلة التسامح في عمان، العدد الثاني ص ١٨٩ .

كل مسلم، ولتربية ذوق كل مسلم، فمن تعلَّم العربية رق طبعه، كما يقول الإمام الشافعي رحمه الله.

٩- أهم موضوعات الحوار:

موضوعات الحوار الإسلامي- المسيحي كثيرة أهمها ما يأتي(١):

- الموقف العقدي من قضايا بعينها، وفي مطلعها: مقاومة العنصرية والتمييز العنصري والعدل الاجتماعي، والحرية والمسؤولية، والسلام القائم على العدل.

- العناية الشديدة بأوضاع الإنسان وتعلقه بأرضه ووطنه.
- التركيز على القضايا الاجتماعية، ومنها الأسرة والزواج والعفة، ومشكلات الشباب، وتحديد مركز المرأة في الأسرة والمجتمع، وتحقيق التكامل بينها وبين الرجل مع مراعاة متطلبات الفطرة الإلهية النقية، والمهام الإنسانية لها في الحياة، والتكافل الاجتماعي، والتعددية في المجتمع.
- علاقة الإنسان بالدولة وبحث قضايا الشورى والديمقراطية والمشاركة السياسية.
- قراءة التاريخ بنظرة فاحصة، وإبراز الصورة الإيجابية للتعايش المشترك والتعاون في الداخل والخارج، وتطلعات المستقبل.

---

(١) المرجع السابق: ص ٢٢ .

الخلاصة

يعيش العالم الآن في حالة غليان وتوتر شديد بسبب اشتعال نيران الحروب وأزمة الغلاء العالمي، مما يجعل الحوار الحضاري ضرورة حيوية لإنقاذ الإنسانية والإنسان ذاته.

وذلك يستدعي بيان تكامل الحضارات القديمة والمعاصرة، حيث إن الحضارة كالعلم لا وطن لهما، وكل أمة تقتبس من حضارة الأمة الأخرى، مما يثبت حق الإرث الحضاري.

وتكامل الحضارات مرتبط بأن المجتمعات الإنسانية متعددة الأديان والمذاهب والثقافات، كتعدد الأجناس والأعراق، وكلها تنصهر في النهاية في ظل حضارة واحدة، فكان لابد من الحوار لمصلحة الإنسان والناس جميعاً، كما لابد من التعاون فيما بين المجتمعات والتعارف، الذي عبرت عنه وثيقة أو صحيفة المدينة المنورة في العهد الإسلامي الأول، حين بداية تكوين الوجود الدولي للإسلام والمسلمين، فيما بعد الهجرة النبوية، فالتعدد ظاهرة أو سنة كونية من سنن الله تعالى.

والحوار الحضاري والحوار الإسلامي بين الأديان ومع الآخرين أمر حتمي ليتحقق التوافق والتقارب بين المفكرين والفلاسفة والحكماء في الاقتصاد والسياسة والاجتماع والاعتقاد والمذهب والتمذهب محلياً ودولياً، ولإنعاش الحرية والحفاظ والرخاء، وحينئذ تجتث شجرة الإرهاب، ويبقى فقط حق الدفاع والمقاومة ضد المعتدين والمحتلين والغاصبين، خلافاً لما نشاهده من وجود إرهاب الدولة، وسحق الإنسان والاعتداء على بعض الدول الإسلامية والعربية

اعتداءً وحشياً وفاضحاً. ولعل الحوار إذا صدقت النيات والعزائم فيه يخفف من آلام الإنسانية المعذبة، ويرفع الظلم عن الضعفاء والمستضعفين.

ومن أهم مقومات الحوار الحضاري في ميزان الإسلام: الانطلاق من قاعدة الإيمان، والحفاظ على مبدأ الإخاء الإنساني لتقوية أواصر الود والحب والسلام، وضرورة الاعتراف بالآخر، والإحساس بمشاعره ومطالبه وآلامه، والتقيد بمنهج الحق والعدل والمساواة، فهو المنهج المتعين في كل حوار، ولا بد من الاستفادة من مقوِّمات الحضارة الإسلامية الأربعة وهي الاستشعار بالحساب الأخروي، والعمل على عمران الدنيا والكون، وإحسان العمل، واجتناب الفساد وكل ألوان الشر والظلم والباطل.

ولا بد من العمل الجاد والدؤوب والمحايد لصون الأمن والسلم الدوليين والمحليين، والتخلص من ظاهرة الإرهاب الدولي والفردي أو الجماعي، وضرورة العمل على إنعاش اللغة العربية - لغة القرآن، ووعاء حضارة قدمت الكثير للعالم كله.

ومواضيع الحوار كثيرة، منها: مقاومة العنصرية والتمييز العنصري، وتفعيل مبدأ العدل الاجتماعي، والحرية والمسؤولية، والسلام القائم على العدل، والعناية بأوضاع الإنسان وتعلقه بأرضه ووطنه، وبحث مشكلات الأسرة والمرأة والشبان والفتيات، وعلاقة الإنسان بالدولة، والتعرف على أخلاق العلم والعمل والتقنية المعاصرة، وقراءة التاريخ بتأمل وحياد، والتخطيط لمستقبل أفضل، وتحقيق تعايش وتعاون أوطد وأمنع وأسلم، والله يحب المحسنين.